البناء الوطنى ومسئولية الحكومة والشعب

د. سيد نوفل

ولدت على عتبة الحرب العالمية الاولى . . ونشأت فى الأزمات الوطنية والدولية المتلاحقة عشرين عاما . . وجمعت بين العمل والدراسات العليا فى اتون الحرب العالمية الثانية . . وسعدت بالدكتوراه فى نهاية الحرب وبين تباشير السلام . . ولكنى لم البث أن استغرقت فى شقاء طويل . . فعايشت ثلاث حروب عربية فاشلة وما بينها : حروب ١٩٤٨ و ١٩٥٦ و١٩٦٧ . . ثم حرب الاستنزاف لمصر وإسرائيل معا عام ١٩٦٩ . . وأخيرا سعدت بحربنا الاولى الناجحة فى القرن العشرين : حرب ١٩٧٣ ، وبانتصارات السلام منذ عام ١٩٧٧ . .

وإنى لأسعد اليوم ببداية عهد البناء الوطنى المصرى . . كما أسعد ببشائر التحول العربى الشامل نحو الغد الأفضل . . وفى مقدمة هذه البشائر تصريحات الأمير فهد بن عبد العزيز الإيجابية ، ومناورات مسئر بيجين السلبية ، وعزلة حكومته واشتداد معاناتها باستقالة عيزر فايتسمان بعد موسى ديان . . أما أعمال الاحتلال الإسرائيلى العصبية المتصاعدة ، والموقف الرجعى فى مفاوضات الحكم الذاتى ، فهى من آيات النصر القريب للسلام العادل الشامل . .

ومستقبل التعاون العربى الأفضل ، قد وثقت فيه ولا أزال منذ عامين ونصف عام . . منذ نشأت حركة الرافضين الصامدين بقيادة الاتحاد السوفيتى ، وأدانيه معمر القذافى وحافظ الأسد . . وأعلنت سياستها المدمرة فى خريف ١٩٧٧ . . ثم ظلت تبدد حتى تفاقمت أخطارها . . ثم أخذت تتبدد حتى آذنت بالأفول فى هذا الربيع .

وهذا كله أقدر حق القدر ضخامة المسئولية الوطنية والقومية فى بداية عهد السلام ، وعظمة الواجب الشعبى والحكومى فى المرحلة المصرية العربية الجديدة . .

وعلى طول السبعينات ، ناضلت مصر فى جبهات ثلاث متوازية متكاملة : جبهات التحرير والديموقراطية والتنمية . . فحققت فى التحرير الإنجازات التاريخية ، وأرست قواعد السلام الشامل للمنطقة كلها . . وأخذت ترفع قواعد الديموقراطية فى خطى متصاعدة . . كما أخذت تعرف نفسها وتكتشف طاقاتها ومقدراتها وتعمر أراضيها وتشكل مرافق حياتها . . ولقد أتى ذلك فى نمط أقرب ما يكون إلى السرعة والمفاجأة . . فأرهق البعض ، فى مصر وفى سائر العالم العربى ، وعجزوا عن متابعته وملاحقته ، وافتقدوا المقدرة على التحول والتطور . .

■ ولقد بدأت مصر الآن المرحلة الكبرى التى استهدفتها مراحل السبعينات التاريخية : مرحلة البناء الوطنى . . وليس من شك أن العامل البشرى أقوى دعائم النهضة ، وأن لكل عهد دولة ورجالا . . ويأتى القاضى دائما قبل القانون ، والمنفذ قبل المشرع . . وقيادات الصخب بشعار الحرب ، والتكتل حول المصالح الذاتية المتبادلة ، والاعتماد على الطغيان فى الحكم ، والركون إلى الجمود فى مجال التنمية ، هذه القيادات لا تصلح لعهد السلام

كان دور بنك مصر ورجاله بزعامة طلعت حرب دورا مرموقا فى البناء الماضى .

والحرية والتنمية . . وليس من الممكن لإنسان أن يتشكل استعداده وممارساته ، وأن يتبدل تبديلا بين عشية وضحاها . .

وقد ظهر أثر ذلك فى قصور بعض الممارسات الديموقراطية على مختلف الجبهات . . فبعض الكتاب ورجال الإعلام لا يتجددون . . ويمضى الكثيرون منهم على الدرب القديم ، ولا يرتفعون إلى مستوى الحاضر فى معالجة قضايا السلام والديموقراطية والتنمية . . ويسيد بهم الأسلوب الشخصى فى معالجة الشئون العامة . .

ومن ذلك ما وقع حين قدمت بعض الاستجوابات إلى الحكومة السابقة . . والاستجواب حق مقرر فى الدستور وفى القوانين المكملة له . . لكن البعض رد بحملة على أصحاب الاستجوابات ، واتهامهم بمختلف الاتهامات . . وسبق فى حكمه مجلس الشعب ودراساته ومناقشاته . .

وظل بعض العاملين فى الحقل السياسى يتعثرون فى ممارسة الديموقراطية ، ويمارسون العمل السياسى الحزبى بأسلوب الأوامر والنواهى الوظيفية التقليدية . . وتحدث المؤيدون والمعارضون عن الانضباط بوصفه قاعدة أساسية للنظام السياسى الحزبى . . وهو أمر لم يرد قط فى أى نظام حزبى ديموقراطى . . فأساس الحزبية الديموقراطية هو الحرية والالتزام معا . . الحرية فى إبداء الرأى والمناقشة ، والالتزام برأى الأغلبية أو التخلى عن الحزب إلى حزب آخر أو الاستقلال عن الأحزاب جميعا . .

واستوقف النظر مسلك بعض المعارضين فى التشهير والتجسيم والأخذ بمبدأ المعارضة الشاملة ، والتماس القوة من بعض الأوساط الخارجية المناوئة ، وتقديم المادة الإعلامية المشوهة لها . . وذلك أمر لا يتفق والنهج الوطنى المستقيم ، ولا يساير الانتصارات المصرية المعاصرة . . كما أن الدراسة الشاملة الواعية المستنيرة للموضوعات لا تسنده ولا تزكيه . .

لكن ذلك كله أمر طبيعى فى شعب ظل محروما من الديموقراطية ربع قرن من الزمان . . كما ظل يمارس الديموقراطية المحرفة المنقوصة طوال ثلاثين عاما من قبل . .

ولعل ذلك هو الذى دفع القيادة المصرية إلى الأخذ بأسلوب التدرج فى بناء الممارسة الديموقراطية ، والانتقال بها من مرحلة أدنى إلى مرحلة أعلى مرة بعد أخرى . .

والمأخذ لا تنال من الإنجاز الكبير الذى تحقق فى سبيل البناء الديموقراطى السليم . . وهو بناء يطرد تكامله ، ولابد أن يبلغ أقصى غاياته . .

□ □ □

■ وفى هذا المجال لا تواجه مصر ما تواجهه البلاد النامية من تحد خطير ، وهو نقص القيادات الوطنية الصالحة . . فالقيادات المصرية الصالحة موفورة ، ومن اليسير استطلاعها ما تحرز المستطلعون من ضعف أنفسهم ، وصدقت نيتهم ، وكافحوا حرص العاجزين المتكلين على التمكين لبقائهم ، وتحروا الحق لوجه الحق والوطن وحدهما . .

ومصر فى هذا المجال لا تبنى من فراغ . . إنما تصل ما انقطع ، وتستكمل ما بدأته . . وتستعيد واقعا قديما وحديثا ، استقرت أسبابه وتوطدت ، وتوارثها الأبناء عن الآباء . ولولا هذه الأسباب الثابتة والطريقة ما استطاعت مصر أن تحقق فى السبعينات ما حققت . .

الأمير فهد بن عبد العزيز تصريحات اجابه

حديث الأسد ... اوفا للاتحاد السوفيتي

استقالة موسى ديان وبعد «الاستقالة» فإنسحاب مصر غزة حكومة بيجن

وأقوى دليل على ذلك ممارسات مصر الرائدة فى عهود الاستعمار الأجنبى : ابتداء من العهد القديم حتى الاستعمار البريطانى القريب ..

□ □ □

وفى مطلع القرن التاسع عشر استطاعت مصر إحياء اللغة العربية وتطويرها بحيث تستوعب النهضة الأوروبية الحديثة . وانشأت مدارس الطب والعلوم العصرية والترجمة لمختلف اللغات الأجنبية . كما أقامت صناعات مدنية وعسكرية هزمت الدولة العثمانية التى كانت فى مقدمة القوى العالمية لذلك العهد . وفتحت أبواب معاهدها للأشقاء العرب فى أرجاء وطنا الكبير .

وبنت طوال الثلاثينيات للقرن التاسع عشر ما أطلق عليه الاستعماريون الأوروبيون : « الإمبراطورية العربية » . تجمع مع مصر بلاد المشرق العربى وطائفة من البلاد الأفريقية العربية .

ولولا تحالف الاستعمار الغربى مع العثمانيين ، وعزل العالم العربى عن مصر ، ما عانى وطنا الكبير ما عاناه طوال قرن من الزمان .

* * *

وكان العالم ، حتى نهاية الثلاثينيات للقرن العشرين ، عالمين : قديما وجديدا . وكان العالم القديم يضم افريقيا وآسيا وأوروبا ، وكان العالم الأسبق الأفريق تحكمه بريطانيا ومعها بعض الدول الأوروبية الأخرى . وكان العالم الجديد يضم أمريكا الشمالية والوسطى والجنوبية . وقد اكتشفها أبناء العالم القديم . وأخذوا يهاجرون اليها طوال ثلاثة قرون من قبل ذلك . ولا يزالون حتى هذه الأيام . وكان العالم القديم عالمين : شرقا وغربا . وكان الشرق هو البلاد المغلوبة الأسيوية والأفريقية . وكان الغرب هو البلاد الأوروبية . وكنا فى مصر ، فى بداية عهد الاستقلال والكشف عن حضارتنا الرائدة القديمة ، نتطلع فى قلقه إلى الاحياء الوطنى . ولم يبل من عزائم المصريين الوجود العسكرى البريطانى فى أرجاء البلاد أولا ، وفى قاعدة القناة أخيرا ..

■ وكنا نتمثل باليابان ، البلد الشرق الذى أبطل قولة الشاعر الاستعمارى البريطانى : روديارد كبلنج : الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا .. فتفوق على الغرب وسفه فى مختلف الميادين .. وكنا نطالع فى المرحلة الابتدائية كتابا صغيرا بالعربية والإنجليزية معا ، عن نهضة أرض البراكين ، عنوانه : « اليابان أرض الشمس المشرقة » ..

ومازلت ، منذ تلك الأيام ، أمثل مصر فى الشرق الأوسط ، اليابان فى الشرق الأقصى .. وهو تمثل له أسبابه ودواعيه القنعة .. فلكل من البلدين إمكاناته البشرية الوفيرة ، وفى مقدمتها ملكات الابتكار والعمل والنظام والتفوق .. وهى التى نالت عليها نهضة اليابان المعاصرة .. بل إن مصر لديها من ميراث الماضى العريق ، ومن النفط والمعادن وإمكانات المزيد منها ، ومن المكان الوسط الإستراتيجى العالمى ، لديها من ذلك كله ما ليس لليابان شىء من مثله ..

وقاومت السيطرة البريطانية الاتجاه المصرى الوطنى إلى النهضة .. فحرفت مصادر التاريخ والجغرافيا الطبيعية والسياسية .. وأخذت تؤكد أن جو مصر وطبيعتها لا يصلحان للصناعة الحديثة ، وأن مصر بلد زراعى تقليدى ، يكفيه غنى أنه موطن الذهب الأبيض : القطن ، قبل عهد الذهب الأسود : النفط .

واستطاعت السيطرة البريطانية أن تحمد حركات التنمية الاقتصادية والصناعية والاجتماعية فى النطاق الحكومى .. وشغلت الأحزاب بالصراع على الحكم للحكم لا للتقدم .

لكن الشعب المصرى ، بقيادة صفوة من أبنائه ، وضع القواعد للتنمية رغم الوسائل المحدودة والعوامل المناوئة .. وكان دور بنك مصر ورجاله بزعامة طلعت حرب ، دورا مرموقا فى البناء المالى والنهضة الصناعية والفنية .. وهى نهضة شملت الأعمال المصرفية وصناعة النسيج المتطورة والمعادن والأصداف .. كما شملت التمثيل والسينما .. وكذلك استطاعت شركات البوسنة الحديثة بقيادة احمد عبود ، أن تبنى أسطول مصر التجارى ، وأن تؤسس مصنع القذائف الذى أصبح من أسس الصناعة الحربية المصرية المعاصرة ، وكان دورهما ، ودور غيرهما فى المجال الاقتصادى ، يكمل أدوار سعد زغلول وعبد العزيز فهمى وعلى شعراوى ومن والاهم فى المجال السياسى .

ولو أن الشعب المصرى استجاب للضغوط البريطانية المحرفة لحركته وتوجه ، لحلت بالحلفاء كارثة ، أو واجهوا على الأقل مصاعب فى الحرب العالمية الثانية تكلفهم الكثير لتخطيها .

فقد ساعدت مصر الحلفاء مساعدة مذكورة فى المقاومة العسكرية .. وعلى أرض مصر تقررت نهاية النازية .. وفى معركة العلمين على مشارف الإسكندرية ، سجل الحلفاء انتصارهم الأول الحاسم فى مسيرة الحرب .. لكن المساعدة التى لا تقدر بثمن هى تزويد جنود الحلفاء المتجمعين فى مصر والشمال الأفريقى ، بالانتاج المصرى من الملابس والأطعمة ومختلف الأدوات ، وقد تقدمت فيها الصناعة المصرية الشعبية ، وتوافر إنتاجها على كره من بريطانيا العظمى التى كانت تحكم ثلاثة أرباع المساحة العالمية وخمسى سكان المعمورة .

□ □ □

■ أما تجاربنا القديمة فى الشورى والديموقراطية ، فتعود أصولها إلى العهد القديم .. كما سجلت تقدما فى مختلف العهود حتى نهاية القرن التاسع عشر والعقود الثلاثة للقرن العشرين .. ولم يستطع الاحتلال البريطانى أن يقضى عليها وإن استطاع تعطيل مسيرتها ..

وبعد ، فهذا مدخل إلى أحاديث البناء الوطنى ومسئولية مصر الحكومية والشعبية فى العهد الجديد .. أما هذه الأحاديث فأرجو أن تتصل وتتوالى .

□